قراءة نفسية في سجل الاستعمار الفرنسي

أ. د مصطفى عشوي
الجامعة العربية المفتوحة – الكويت
mustafait@hotmail.com

تاريخ الإرسال: 2019/09/18 تاريخ القبول: 2019/11/28

ملخص

انطلقت هذه الدراسة من سؤال حول إمكانية تقديم قراءة نفسية في سجل الاستعمار الفرنسي في الجزائر بموضوعية؟

وقد استعرضت الدراسة موضوع ومنهجية هذه القراءة؛ وذلك بالتركيز على المنهج التاريخي وتحديد موضوع هذه القراءة بأقلام بعض الكتاب والمؤرخين الفرنسيين أساسا. وقد حددت مواضيع هذه القراءة إجرائيا في تقابل القوة والضعف عند كل من القوة الاستعمارية والشعب الجزائري المحتل مع ذكر بعض الجرائم اللاإنسانية التي قامت بها سلطات الاحتلال منذ غزوها للجزائر، وفي الحرب النفسية التي شنها الخبراء الفرنسيون، وفي تجنيد التدين المزيف، وفي سياسة التجهيل التي طبقها الاستعمار الفرنسي في الجزائر. وقد استنتج الباحث في آخر الدراسة ما يأتي:

1- إن للاستعمار وللقوة الدافعة له بنية ذهنية تتسم بالعدوانية والتعالي والشعور بالتفوق، واستعمال آليات نفسية لتبرير هذه العدوانية كما تبرر الاعتداء على حقوق الآخرين.

2- قام الاستعمار الفرنسي بإثارة انفعالات شديدة مثل الكراهية والحقد التاريخي لتحطيم الآخر، وتشويهه بل واستعباده وسلب خيراته وحرياته مثل الكراهية والغضب والحقد.

3- أظهرت الأفعال التي قامت بها القوات الفرنسية في الجزائر مدى وحشية هذه القوات مما يعبر عن الذهنية والانفعالات المشار إليها أعلاه.

وتحتاج هذه القراءة النفسية الأولية إلى دراسات أخرى تتعمق في الجوانب النفسية لتاريخ الاحتلال الفرنسي للجزائر برمته بهدف فهم هذه الجوانب والدوافع المصاحبة لها، كما تتعمق في الجوانب النفسية ودوافعها التي أسهمت في مقاومة الاحتلال من طرف الشعب الجزائري.

الكلمات المفتاحية: قراءة نفسية، الاستعمار الفرنسي، مقاومة الاحتلال.

Abstract

The main question of this study is: To what extend is possible to present an objective psychological reading about the French colonial history in Algeria?

The subject matter and the methodology of this reading are based on using the historical method, and some French writers and historians' references.

Operationally, this reading is identified in four issues:

- The "power" of the colonizer versus the colonized weakness.
- Using the psychological warfare by the French experts.
- Mobilizing fake "religiosity" to serve the colonial interests.
- Promoting ignorance among the Algerian population.

The following conclusions were inferred:

The colonizer has a cognitive structure (mentality) that is characterized by aggressiveness, and negative motivation.

The French colonizer provoked strong emotions such as abhorrence, and anger in order to destroy, distort the image, enslave, and deprive the Algerian population.

The French army forces' barbaric actions in Algeria revealed its barbaric character which demonstrates the aggressive mentality, and its motivation.

This psychological reading needs more similar studies that should analyze deeply the psychological aspects of the French colonization history in Algeria in addition to the Algerians' resistance for more than a century.

Key words: psychological reading, French colonialism, resistance to occupation.

Résumé

Cette étude comporte une question relative à la possibilité de présenter une lecture psychologique sur L'histoire de colonisation Français en Algérie avec objectivité.

Cette lecture est basée sur la méthodologie historique, et la délimitation du sujet de cette lecture selon des écrivains et historiens Français. Cette lecture a limité les thèmes selon les points suivants :

1-Les points forts et faibles aussi bien chez la puissance coloniale que chez le people colonise.

2-La guerre psychologique menait par la France contre le people Algérien.

3-Mobilisation falsifie de la religion.

4-La politique de l'ignorance et de l'analphabétisme en Algérie.

Le chercheur a déduit à la fin de son étude ce qui suit :

1-La mentalité de colonisateur était basée sur l'agressivité en utilisant des mécanismes psychiques pour justifier cette agression.,

2-Le colonialisme Français a généré des réactions émotionnelles que la haine et la rancune vis à vis de l'autre.

3- Les actes barbares des forces armées Françaises révèlent la brutalité de la mentalité de ces forces.

Cette première lecture psychologique appelle à des études approfondies de ce genre dans l'histoire de la colonisation Française en Algérie.

Mots clés: lecture psychologique, colonialisme français, résistance à l'occupation.

مقدمة

هل يمكن تقديم قراءة نفسية في سجل الاستعمار الفرنسي بالجزائر بموضوعية؟

سنحاول تقديم هذه القراءة في هذا المقال بالاعتماد على مراجع فرنسية بالأساس، وسنترك للمختصين في التاريخ وعلم النفس التعمق والبحث العلمي في موضوع ومنهجية القراءة النفسية للتاريخ بصفة عامة كاختصاص جديد ذي موضوع ومنهج متميزعن باقي الاختصاصات نقترحه للنقاش والإثراء.

سواء سميناه احتلالا أم استعمارا لأرض الآخر، فإن الحقيقة التاريخية واحدة خاصة إذا سجلت بأقلام متعددة وغيرمتحيزة، وأن هذه الحقيقة ستبقى شاهدة على أن الاحتلال الفرنسي للجزائر ليس إلا جزءا من جرائمها التاريخية في عدة قارات وبلدان. فقد احتلت فرنسا مناطق عديدة في أمريكا الشمالية، والوسطى والجنوبية، كما احتلت بلدانا كثيرة في افريقيا، وغزت واحتلت فيتنام ولاوس وكمبوديا وسوريا ولبنان في آسيا. وسنرى نماذج من هذه الجرائم في الجزائروالتي يندى لها جبين الإنسانية كما أوردها كتاب ومؤرخون فرنسيون.

وقد شاركت فرنسا بلدانا أوروبية أخرى مثل هولندا وبريطانيا واسبانيا والبرتغال في تجارة العبيد إذ عملت على أسر واستعباد كثير من سكان إفريقيا ونقلهم بالقوة إلى أمريكا للعمل كعبيد في مزارع القطن وقصب السكر وغيرها. وقد شكلت هذه التجارة التي بدأت في القرن الخامس عشر واستمرت طوال 400 سنة التالية واحدة من أندر الظواهر في تاريخ العالم؛ إذ تعتبر أكبر هجرة إجبارية في التاريخ (موسى، 2007). وقد اعترف قانون ماي 21 من سنة 2001 الصادر بفرنسا بالمتاجرة بالعبيد والاستعباد كجريمة ضد الإنسانية؛ وقد نشر هذا القانون في الجريدة الرسمية (الفرنسية) بتاريخ 23 ماي، 2001 حيث جاء في المادة الأولى من هذا القانون ما يأتي: «تعترف الجمهورية الفرنسية بأن المتاجرة بالعبيد عبر المحيط الأطلسي وفي المحيط الهندي من جهة، والاستعباد من جهة أخرى، الذي مورس ابتداء من القرن 15 بأمريكا وجزر الكراييب وفي المحيط الهندي وفي أوروبا في حق الشعوب الافريقية، والهندو-أمريكية، الملغاشية والهندية، تشكل جريمة ضد الإنسانية».

ولكن فرنسا لم تعترف إلى الآن بجرائمها في الجزائر، كما لم تعترف بتهجير السكان وحشرهم في محتشدات داخل البلاد أو بتهجيرهم بالآلاف إلى فرنسا كيد عاملة رخيصة أو لتجنيدهم إجباريا لمحاربة أعدائها في أوروبا وغيرها. فقد أرسلت فرنسا إلى جبهات القتال بأوروبا 173000 جندي من الأهالي، و119000 ألف جزائري للعمل بفرنسا. وفي سنة 1918 أصبح أكثر من ثلث الجزائريين الذكور مسخرين كيد عاملة رخيصة في فرنسا (Ageron, 1974).

ولم تكتف فرنسا بعدم اعترافها بجرائمها في الجزائر وغيرها من البلدان بل مجدت الاستعمار والاستيطان حيث أصدرت قانون 23 فبراير، 2005 المتضمن «عرفان الأمة والمساهمة الوطنية لصالح الفرنسيين المستوطنين. وقد نشر هذا القانون في الجريدة الرسمية بتاريخ 24 فبراير، 2005 حيث جاء في المادة الأولى منه: «تعبر الأمة عن عرفانها للنساء والرجال الذين ساهموا في الأعمال المنجزة من طرف فرنسا في المستعمرات الفرنسية القديمة: الجزائر، المغرب، وتونس وفي الهند الصينية، وكذلك في الأقاليم التي كانت خاضعة للسيادة الفرنسية» (ليوزو منصرون، 2007). ولا شك، أن سجل الاستعمار الفرنسي ملطخ بجرائم ضد الإنسانية عبر التاريخ وعبر الجغرافيا، وسيبقى ملطخا مهما حاول النظام الرسمي الفرنسي طمس الحقائق التاريخية أو إخفاءها أو نكرانها أو الهروب إلى الأمام بتمجيد «الاستعمار» والاستيطان بقوانين رسمية أو ببرامج مدرسية.

لن أتعرض في هذه المقالة لكل جرائم فرنسا في الجزائر؛ بل أكتفي بسرد بعض هذه الجرائم التي وثقها كتاب ومؤرخون فرنسيون مثل ستورا بنيامين (Stora Benjamin) وغرانيمزون (Grandmaison) ومسبيرو (Maspero).

سأقتصر فيما يلي بقراءة نفسية أولية للنزعة الاستعمارية العدوانية، وللمبادئ البراقة التي قامت عليها هذه النزعة، وما نجم عن ذلك من حروب وكوارث ومآس على أرض الجزائر وغيرها دون إغفال الصفات السلبية التي اتسمت بها «الضحية»؛ أي البلد الذي وقع عليه العدوان والاحتلال مما جعلها تدفع ثمنا غاليا عند مواجهتها لهذه النزعة.

ولعل هذا المسعى يندرج في إطار تصور قراءة نفسية لسجل الاستعمار الفرنسي في الجزائر؛ وهي القراءة التي لا نراها إلا نادرا في بعض التحليلات لأحداث تاريخية رغم أن «المنهج التاريخي» في البحث العلمي من المناهج المعتمدة في العلوم الاجتماعية والإنسانية.

ونقصد بالقراءة النفسية للتاريخ في هذا المقال إبراز مواضيع محددة يتم من خلالها دراسة بعض جوانب «الذهنية الاستعمارية» وما يرتبط بها من انفعالات وأفعال (سلوك) تتسم بالعدوانية والعنف والأنانية، كما يتم إبراز بعض جوانب ذهنية وانفعالات وأفعال «الضحية» أو المعتدى عليه وهي الشعوب المستعمرة أو التي وقع عليها الاحتلال.

أما بخصوص المنهج المتبع، فهو إجمالا المنهج التاريخي التحليلي مع الاعتماد على نظرية التحليل النفسي لألفرد أدلر (Alfred Adler) في شرح بعض العقد النفسية أو السلوك الذي ينجم عنها. ونقصد بالمنهج التاريخي في هذا السياق دراسة «الماضي بواسطة جمع الأدلة وتقويمها، ومن ثم تمحيصها وأخيراً تأليفها؛ ليتم عرض الحقائق أولاً عرضاً صحيحاً في مدلولاتها وفي تأليفها، وحتى يتم التوصل حينئذٍ إلى استنتاج مجموعة من النتائج ذات البراهين العلمية الواضحة" (العساف، 1989، ص282).

تقابل القوة والضعف

لم يكن ممكنا للقوات الفرنسية احتلال الجزائر لولا توافر عدة عوامل من أهمها التفوق الفكري و العلمي والتكنولوجي وخاصة في مجال الأسلحة مما ولد لدى الحكام الفرنسيين نزعة استعراض القوة، وعزز لديهم العدوانية ونزعة التوسع الاستيطاني واستغلال خيرات الشعوب الأخرى التي كانت تعاني ضعفا خاصة في الجانب العلمي والتكنولوجي.

ويقابل عوامل القوة والسيطرة والهيمنة التي تميزت بها القوات الفرنسية آنذاك ضعف نفسي (ذهني وسلوكي) واجتماعي لدى الطرف الآخر؛ وهو الطرف الذي وقع عليه العدوان. ويتمثل هذا الضعف فيما شخصه ابن نبي بالقابلية للاستعمار حيث قال في كتابه شروط النهضة (1986): «وليس ينجو شعب من الاستعمار وأجناده، إلا إذا نجت نفسه من أن تتسع لذل مستعمر، وتخلصت من تلك الروح التي تؤهله للاستعمار. ولا يذهب كابوسه عن الشعب -كما يتصور بعضهم- بكلمات أدبية أو خطابية، وإنما بتحول نفسي، يصبح معه الفرد شيئاً فشيئاً قادراً على القيام بوظيفته الاجتماعية، جديراً بأن تُحترم كرامتُه؛ وحينئذ يرتفع عنه طابع (القابلية للاستعمار)، وبالتالي لن يقبل حكومة استعمارية تنهب ماله وتمتص دمه، فكأنه بتغيير نفسه قد غير وضع حاكميه تلقائياً إلى الوضع الذي يرتضيه».

وفي الواقع، فإن «القابلية للاستعمار» حالة نفسية معقدة لدى الفرد والمجتمع المكبل بعدة «عقد» أو سمات ذهنية ووجدانية وسلوكية تتجلي باختصار في «التخلف» الملاحظ في شتى المجالات وخاصة في المجالات العلمية والتربوية والاقتصادية والصحية. وتشكل هذه «الحالة النفسية» عندما تكون سائدة لدى شعب ما أرضية خصبة، وفريسة سهلة لعدوان الأقوى فكريا وتكنولوجيا. ولولا متلازمة التخلف، وما ارتبط بها من ظواهر

سلوكية سلبية لدى الشعب الجزائري في الربع الأول من القرن التاسع عشر ما استطاعت القوات الفرنسية احتلال الجزائر. ولولا هذا الضعف المادي والنفسي ما دام الاحتلال الفرنسي للجزائر 132 سنة. ولكن وجود هذه المتلازمة عند المستعمر (بفتح الميم) لا يعطي أية شرعية بأي شكل من الأشكال للمعتدي ولغزو فرنسا للجزائر ولاحتلالها لها بالقوة.

ولكن عوامل التفوق التكنولوجي للقوات الفرنسية، ونزعتها العدوانية والاستعمارية من جهة، والقابلية للاستعمار عند الجزائريين من جهة أخرى لا تفسر ظاهرة الاستعمار والاحتلال تفسيرا كاملا خاصة وأن الاحتلال الفرنسي للجزائر قد جوبه بمقاومات شديدة في معظم مناطق البلاد منذ بداية الغزو حتى استقلال الجزائر سنة 1962 مما يدل على أن «الضحية» وإن كانت ضعيفة ومفككة إلا أنها حاولت المقاومة بأي شكل من الأشكال دفاعا عن النفس والعرض والأرض قبل الاستسلام مرغمة للقوة التي قهرتها مؤقتا. وسواء كان الدافع لاحتلال البلدان الأخرى توسعا اقتصاديا (امبرياليا) أو سياسيا أو أمنيا أو دينيا أو لبسط النفوذ بصفة عامة فإن استعمال القوة للحصول على أي شكل من

أشكال النفوذ غير مبرر أخلاقيا على الأقل. ويعبر استعمال القوة لغزو الآخر واحتلال أراضيه عن عقدة «التفوق» أو «التعالي» التي كان يشعر بها الأوروبيون وخاصة في القرن التاسع عشر؛ والتي تعبر عن «نقص» في جوانب أخرى مثل الجانب الاقتصادي. ولتبرير استعمال القوة العسكرية لقهر الشعوب الأخرى، واحتلال أراضيها، ونهب خيراتها، وبسط نفوذها السياسي عليها عمدت فرنسا إلى تجنيد عدة سياسيين ورجال دين وكتاب وأطباء لتبرير جرائمها وأعمالها العدوانية اللاإنسانية. وقد تجلى هذا «التبرير» (Rationalization) كآلية دفاعية في كتابات كثير من السياسيين والأدباء والأطباء الفرنسيين علاوة على كتابات بعض الضباط الفرنسيين أنفسهم. ومن أمثلة هؤلاء السياسي الفرنسي المعجب بالديمقراطية الأمريكية توكفيل (Tocqueville) والأديب صاحب رواية البؤساء فيكتور هيغو (Victor Hugo) والروائي دو موباسان (De Maupassant) والشاعر لامرتين، وطبيب الأعصاب أنطوان بورو (Antoine Porot) وتلامذته وغيرهم...

لقد أورد غرانميزون (2008) في كتابه «الاستعمار الإبادة» تصريحا لألكسي توكفيل وهو نائب في البرلمان الفرنسي، وفي نفس الوقت عضو في أكاديمية الأخلاق والعلوم السياسية، ووزير للخارجية الفرنسية تحت ما سمي بالجمهورية الثانية قال فيه داخل

البرلمان الفرنسي سنة 1847: «غالبا ما سمعت رجالا، أكن لهم كل الاحترام ولكنني لا أتفق معهم، يقولون: ليس من الأخلاق في شيء حرق المحاصيل الزراعية وتفريغ المخازن ومباغتة الرجال والنساء والأطفال العزل؛ وأنا أقول إن هذه أمور مؤسفة حقا، ولكن كل من يريد محاربة العرب يجد نفسه مضطرا لاقترافها...».

وإذا تأملنا هذا النص الذي حاول فيه صاحبه السياسي «المثقف» إيجاد «تبرير أخلاقي» لمحاربة العرب في الجزائر، ومباغتة الرجال والنساء وحتى الأطفال العزل لانتهينا إلى إدانة هذا السياسي إدانة أخلاقية وقانونية. وقد ذكر غرانميزون وغيره نماذج كثيرة لسياسيين ولكتاب وشعراء فرنسيين مجدوا «الاستعمار» الفرنسي للجزائر كما مجدوا وسائله الهمجية ومن بينهم الشاعر المشهور لامارتين، والكاتب المعروف فيكتور هوغو. لقد كتب فكتور هيغو كتابه «البؤساء» ليثير الشفقة على بؤساء الشعب الفرنسي، ولكنه من مؤيدي احتلال الجزائر بل واحتلال كل افريقيا لنقل الحضارة والتنوير إليها كما زعم. لقد بنى هيغو أطروحته على أساس أن العالم المتقدم الواقع شمال البحر المتوسط مختلف تماما عن العالم في الضفة الجنوبية للبحر؛ ففي الضفة الشمالية تتربع الحضارة، وفي

الضفة الجنوبية توجد الهمجية والبربرية. وهو الذي نفى أي تاريخ لإفريقيا عكس آسيا وأمريكا وأستراليا. ونظرا لأن إفريقيا بدون تاريخ، وأنها ليست ملكا لأحد، فقد استخلص أنه يحق لفرنسا حجزها (أخذها). والاستفادة من ذلك ذات شقين: حل مشكلات أوروبا من جهة، ومساعدة الأهالي (سكان افريقيا) على الاستفادة من التنوير من جهة أخرى. إن إفريقيا الهمجية هذه لديها بعدان: المسكون منها عبارة عن همجية، وغير المسكون منها عبارة عن برية موحشة. دعنا نأمل بأن نفس تنوير القرن التاسع عشر يشعر به في هذه المناطق... لقد صنع الرجل الأبيض من الأسود رجلا، وأوروبا ستصنع من إفريقيا عالما. انطلقوا أيها الناس واحجزوا هذه الأرض، خذوها. تأخذوتها ممن؟ ليس من أحد. خذوها من الإله؛ الإله أعطاها للرجال؛ الإله أعطى إفريقيا لأوروبا...وفي آن واحد، حلوا مشكلاتكم الاجتماعية؛ غيروا عمالكم (البروليتاريا) إلى ملاكي أراض؛ ابنوا طرقا، وموانئ، ومدنا، انموا، احتلوها (يوسف، 2018) . ولم يكتف فكتور هيغو بهذه الأقوال التي تنم عن التعالي والدعوة إلى أخذ أراضي الأفارقة بالقوة بل انتقد حكومته لأنها لم تقم حسب رأيه بأعمال همجية كما ينبغي في الجزائر؛ إذ قال بهذا الصدد: "إن ما ينقص فرنسا في الجزائر شيء من اللاإنسانية...إن أول شيء يصيب الهمجي هو القوة وليس الإحساس..." (يوسف، 2018، ص 16). وقد ترجمت دعوة فكتور هيغو وغيره إلى عمليات إبادة في إفريقيا، وفي الجزائر بصفة خاصة حيث دعا بعض الفرنسيين إلى إبادة الشعب الجزائري. لقد أورد غرانميزون مثلا أن بعض الكتاب والسياسيين الفرنسيين قد ذهبوا إلى أبعد من مطاردة الجزائريين، وإبعادهم عن أراضيهم واغتصابها، بل دعوا إلى إبادة جزء من "العرب" أو كلهم بحجة دامغة وهي أن العرب جنس أدنى غير قابل للتحضر. واستعان هؤلاء كثيرا بصنيع الغرب بهنود أمريكا وشعب الأبورجين في استراليا... (غرانميزون، 2008، ص 19).

ولمن أراد أن يطلع أكثر على عمليات الإبادة التي قامت بها القوات الفرنسية في الجزائر سواء بالحرق أم بالقتل العمدي للنساء والأطفال والأسرى، فليرجع مثلا إلى كتاب غرانميزون (2008) تحت عنوان "الاستعمار الإبادة"، وكذلك إلى كتاب غالوا (2008) في كتابه باللغة الانكليزية عن "إدارة المرض: الطب والأخلاق في جزائر القرن التاسع عشر[1]. وقد خصص هذا الكاتب الفصل الرابع من كتابه المذكور لعمليات الإبادة التي قادها جنرالات فرنسا ضد الجزائريين حيث أبادوا عدة قبائل بالحرق والتقتيل الجماعي مثلما

1-William, Gallois: The Administration of sickness- Medicine and Ethics in Nineteenth-Century Algeria. Palgrave-Macmillan، UK. P: 93-134.

حدث في محرقة قبيلة أولاد رياح بالظهرة وقبيلة سبيعة معتبرا أن عمليات الإبادة هذه تعبر عن "ثقافة فرنسية" وليست عمليات انفرادية؛ إذ ساندها ودعمها، ودعا إليها كتاب ومثقفون فرنسيون. ويكفي أن نستدل على وحشية القوات الفرنسية وهمجيتها في التنكيل بالمواطنين الجزائريين بأمثلة أوردها مسبيرو (2005) حيث نقل شهادة الكولونيل (العقيد) ببليسي دورينو الذي وصف العمليات الدموية التي ارتكبها هو وجنوده ضد الجزائريين، ومنها المجزرة التي ارتكبت ضد قبيلة «الأوفياء» حيث قال: «عند العودة من تلك الحملة المشؤومة، كان العديد من فرساننا يرفعون رؤوسا فوق أسنتهم، وقد استعملت واحدة منها في وليمة فظيعة» (مسبيرو، ص 89). وأورد نفس المؤلف (مسبيرو ،2005) أن القائد العام الفرنسي دوروفيغو كان يقول: «آتوني بالرؤوس، اقطعوا رأس أول بدوي تلقونه وسدوا بواسطتها قنوات المياه المخربة « (ص 89). وقد كانت حصيلة الحملة المشؤومة ضد قبيلة «الأوفياء»، هلاك اثني عشر ألفا من أبناء وبنات هذه القبيلة. وبعد بضعة أيام، عرضت كميات معتبرة من الأساور والأقراط للبيع في سوق باب «عزون» بمدينة الجزائر» (مسبيرو، 2005، ص 89).

وكشهادة كذلك على وحشية الاحتلال الفرنسي وهمجيته، وعلى الصدمة النفسية الكبيرة التي خلفها في نفوس الجزائريين شهادة اللجنة البرلمانية الفرنسية التي أوفدت سنة 1834 لتقصى الوضعية في البلد المحتل؛ فوصفت الوضع القاسي والوحشية الفرنسية في الجزائر بقولها: «لقد تجاوزنا، في درجة التوحش، وحشية القوم الذين جئناهم بالحضارة، وها نحن نشتكي من عدم تمكننا من تحقيق الحظوة لديهم» (مسبيرو، ص 91).

وقد استمرت هذه الوحشية والهمجية في التعامل مع الجزائريين بهدف زرع الرعب والهلع في قلوبهم، ليستكينوا وليخضعوا لإرادة المحتل. وقد اتبعت الوحشية في التنكيل كأسلوب للترويع بإحداث «صدمات نفسية» لشل الخصم ذهنيا ووجدانيا وسلوكيا. انظروا مثلا لهذه الشهادة المفزعة التي أوردها مسبيرو نقلا عما كتبه أحد شهود عيان من الفرنسيين عن فضائع الجيش الفرنسي وعملائهم ضد سكان واحة الزعاطشة سنة 1850 حيث كتب قائلا: «... فكنت ترى هنا عسكريا يقطع ساخرا ثدي امرأة مسكينة وهي تترجاه أن يرحمها بقتلها، ثم تلفظ أنفاسها بعد لحظات وهي تتضور ألما، وترى هناك جنديا آخر يمسك طفلا صغيرا من رجليه ويضرب رأسه على جدار فيتناثر المخ منه، وفي جهات أخرى مشاهد لا يتحملها العقل السليم ويعجز عن وصفها اللسان» (مسبيرو، ص 308).

هذه نماذج من «حضارة» فرنسا وثقافتها وإنسانيتها وعلمها التي أراد فكتور هيغو وألكسي توكفيل وبورو وأمثالهم نقلها إلى الجزائر[2]. وما هي في الواقع إلا استعمال لآليات دفاعية كالتبرير والهروب من الواقع، وليست إلا تعبيرا عن عقدة تفوق تخفي في الأعماق عقدة الشعور بالنقص بالإضافة إلى محاولات بائسة أخرى لإخفاء النزعة العدوانية التي اتسم بها التوسع الاقتصادي والاستعمار الاستيطاني وبسط النفوذ السياسي للدول الأوروبية ومنها فرنسا على القارات الخمس.

وبالإضافة إلى جرائم التقتيل الجماعي والحرق والتعذيب في محاولة لإبادة أكبر عدد ممكن من الجزائريين، فقد عمدت القوات الفرنسية إلى استخدام «الحرب النفسية» للسيطرة على عقول من تبقى من الجزائريين وعلى وجدانهم وسلوكهم؛ وذلك باستعمال أطباء أعصاب، وإعلاميين وضباط مخابرات، وبعض رجال الدين المزيف، ونظام تعليم مشوه. وقد استعمل كل ذلك لتبرير الاحتلال، وحرب الإبادة التي قام بها الجيش الفرنسي في الجزائر، وكذلك عمليات مسخ شخصية الآخر (الشعب الجزائري) أمام الرأي العالمي والمحلي بهدف الحصول على تعاطفه أو التغاضي على الأقل على جرائم الاحتلال والإبادة التي مارسها.

- الحرب النفسية:

المقصود بالحرب النفسية في هذه المقال، استعمال الدعاية (propaganda) ضد العدو... بهدف تحطيم الروح المعنوية لديه، ولكبح إرادته في القتال أو المقاومة، أو لجعله أحيانا مستعدا لقبول موقف الآخر[3] (عدوه). مع العلم أنه يوجد عدة معاني لهذا المفهوم وهذا حسب موطن استخدمه مثل ما أوضح ذلك بوسنة (2015) .

لقد جندت الدولة الفرنسية كل وسائلها الدعائية العسكرية والمدنية، كما جندت أدباء وأطباء وانثروبولوجيين وصحفيين وعلماء في البيولوجيا والوراثة وعلم النفس والطب النفسي لشن حرب نفسية شرسة ضد الشعب الجزائري متبعة في ذلك استراتيجية "مسخ الخصم"، وتشويه صورته الحسية والمعنوية بهدف تبرير سحقه والقضاء عليه. لقد شرح غرانميزون (2008) بالتفصيل الخصائص الذهنية والوجدانية والسلوكية للعرب من وجهة نظر الفرنسيين وخاصة العسكريين منهم؛ وذلك في فصل كامل تحت

2 - لمزيد من الأمثلة عن جرائم فرنسا كما أوردها غرانميزون ومسبيرو وغيرهما، يمكن الرجوع إلى موضوع: صدمة الاستعمار لمصطفى عشوي في كتاب: الصدمات النفسية في الجزائر: مصطفى عشوي ومصطفى خياطي. دار الأمة، الجزائر، 2012.

3- https://www.britannica.com/topic/psychological-warfare

عنوان "بخصوص العرب" حيث عرض أقوالا موثقة لمؤرخين وكتاب وضباط فرنسيين تحط من شخصية الجزائري، وتسخر من طبيعته البشرية بكل أبعادها. أما ميليرون (2007) فقد أفاضت في شرح تقنيات الحرب النفسية التي استخدمت من طرف ضباط فرنسا بالجزائر؛ وذلك في موضوعها تحت عنوان "العمل البسيكولوجي ومسخ إنسانية الخصم[4]" حيث أوضحت الهدف من استخدام الحرب النفسية في قولها: "أن تستخدم السلاح البسيكولوجي يعني أن تقوم بعملية موجهة ضد العدو بهدف التأثير على فكره وعواطفه وموقفه وسلوكه، لفائدة مخططات الحكومة والقيادة، وفي آن واحد أن تتوجه إلى عناصر صديقة، وحليفة أو محايدة للحصول على الدعم وكسب تعاطف فعال" (ص 211).

ومما عمد إليه الجيش الفرنسي في إطار الحرب النفسية التي شنها ضد الشعب الجزائري برمته القيام بتجنيد الأطباء النفسيين الفرنسيين لمسخ شخصية "الخصم" أو "العدو" أو "المستعمر" (بفتح الراء)، ولتجريم "العدو" كما أكدت ذلك ميليرون (2007) حيث كتبت أن الدعاية الفرنسية التي قادها ما سمي بالمكتب الخامس للعمل السيكولوجي (الحرب النفسية)[5] قد قامت أساسا على نظريات المدرسة الفرنسية للدراسات النفسية في الثلاثينيات من القرن العشرين. وقد تزعم هذه الدراسات طبيب أعصاب فرنسي في جامعة الجزائر يسمى أنطوان بورو (Porot)؛ إذ حاول إقامة علاقة بين الأمراض العقلية والجريمة، كما حاول الدفاع عن فرضية قائمة على الدعاية والحرب النفسية في كتابه "النزعة البدائية لأهالي شمال إفريقيا وتأثيرها في علم الأمراض العقلية"؛ ومفاد هذه الفرضية أن "الشمال الإفريقي المتميز ببدائيته هو مجرم بطبيعته" (ميليرون، 2007، ص 212). وهنا نلاحظ استعمال آلية "الإسقاط" (Projection) من طرف الدعاية الفرنسية لاتهام الطرف الآخر بسلوك إجرامي ليس في الواقع إلا صفة أساسية للسلوك الإجرامي الذي قامت به القوات الفرنسية في كل أرجاء الجزائر وغيرها.

وقد فضحت ميليرون هذه الفرضية التي ساندها عدة أطباء فرنسيين أمثال بوروا وابنه وتلامذته والتي كانت قد اتخذت كمنطلق للدعاية الحربية والعمل السيكولوجي في الجزائر بقولها: "يتحدد من هذه الدعاية الحربية تصور جديد للأنا والآخر ...المعادلة

4 -ميليرون، كريستين (2007): العمل البسيكولوجي ومسخ إنسانية الخصم في «العنف، التعذيب والاستعمار: من أجل الذاكرة الجماعية». إشراف كلود ليوزو، ترجمة: إبراهيم سعدي، دار القصبة للنشر، الجزائر، ص 209-232.

5-أنشىء المكتب الخامس للعمل السيكولوجي في نوفمبر 1954 وأغلق سنة 1960؛ وقد كان متخصصا في شن الحرب النفسية في الجزائر.

بسيطة: الأنا طيب والآخر مجرم" (ص 213). ومما قالته الكاتبة أيضا بهذا الخصوص هو: "إن الجيش الفرنسي ينسب في دعايته للاستقلاليين كل أنواع العيوب والرذائل. يدل على ذلك كثرة المفردات المستقاة من الفضاء المعجمي للعنف واللصوصية: الغرور، الجبن، الكذب، التفاهة، السادية..." (ص 218).

وفي الواقع، فإن هذه الكاتبة ليست هي الوحيدة التي فضحت أعمال بورو وتلامذته بل قام بذلك قبلها وفي حينه الطبيب النفسي فرانز فانون الذي واجه أطروحات بورو، وانتقدها بقوة وخاصة في كتابه "معذبو الأرض"[6]. وفضحها أيضا النفساني والانثروبولوجي الفرنسي دوري (2006) (Doray, 2006) الذي أشار إلى أن بورو وتلامذته قد اعتبروا أن الجزائري يسيره دماغ متخلف مثل دماغ الزواحف، وأن مخه محروم من القشرة الدماغية أو الكورتكس (Cortex)، وأن دماغه ليس لينا كدماغ الأوروبي. وأوضح دوري أن هدف أصحاب هذه المدرسة الفرنسية المتحيزة الذين عملوا على إعطاء حجج "علمية" للجرائم الفرنسية ليس تبرير المكانة الثانوية (مواطنون من الدرجة الدنيا) التي طبقت على "المسلمين" فحسب، ولكن لإعطاء شرعية لقمع مسلح ضد طموح تحرري؛ وهو القمع الذي بدأ قبل انطلاق الثورة الجزائرية بأمد طويل. إن هذا الطب النفسي العنصري (العرقي) كان أيضا طبا نفسيا عميلا.

وقد برز فانون[7] في الرد على تلك الأطروحات العنصرية حيث وصف بأسلوب واضح لا لبس فيه في كتابه «معذبو الأرض» كيف كان ينظر المستعمر (المحتل) للشعوب المستعمرة وخاصة المجتمع الجزائري بقوله: «إنهم لا يكتفون بأن يصفوا المجتمع المستعمر (بفتح الميم) بأنه خال من القيم. إن المستعمر (بكسر الميم) لا يكتفي بالقول إن القيم قد نزحت عن المجتمع المستعمر (بفتح الميم)، أو أنها لم توجد فيه يوما. وإنما هو يعلن أن السكان الأصليين لا سبيل لنفاذ الأخلاق إلى أنفسهم، وأن القيم لا وجود لها عندهم، بل إنهم انكار للقيم، أو قل إنهم أعداء للقيم. فالمستعمر (بفتح الميم) بهذا المعنى هو الشر المطلق. إنه عنصر متلف يحطم كل ما يقاربه، عنصر مخرب يشوه كل ما له صلة بالجمال أو الأخلاق، إنه مستودع قوى شيطانية، إنه أداة لقوى عمياء، أداة لا وعي لها ولا سبيل إلى إصلاحها» (ص 32). ونلاحظ هنا كيف حاول الاستعمار الفرنسي إقامة علاقة بين الاحتلال والخير والقيم الراقية إجمالا، وفي نفس الوقت إنكار وجود الخير والقيم الراقية لدى الطرف الآخر وهو المستعمر (بفتح الميم).

6-Les Damnés de la Terre-

7- فرانز فانون: طبيب أعصاب فرنسي من جزر المارتنيك التي احتلتها فرنسا. ولد سنة 1925 وتوفي سنة 1961 بالولايات المتحدة.

وقد ربط فانون بين الحروب الاستعمارية ونشوء الأمراض العقلية والاضطرابات السلوكية لدى ضحايا هذه الحروب؛ فأكد على ذلك بقوله: «إن الحرب، هذه الحرب الاستعمارية التي تكتسي في كثير من الأحيان إبادة جماعية للنوع الإنساني، هذه الحرب التي تقلب العالم رأسا على عقب وتحكمه، هي الحادث الذي يطلق المرض» (ص278).
وقد ربط فانون أيضا بين اضطراب الهوية والاضطهاد المنظم والمنهجي الذي مارسه الاستعمار الفرنسي في الجزائر وفي بلدان أخرى حيث قال بهذا الصدد: «إن الاستعمار، من حيث هو نفي منظم للآخر، من حيث هو قرار صارم بإنكار كل صفة إنسانية على الآخر، يحمل الشعب المستعمر على أن يتساءل دائما هذا التساؤل: (من أنا في الواقع؟)» (ص 276).
ولقد ذهب فانون أبعد من ربط الحرب الاستعمارية بما تخلفه من جروح عميقة في النفس والجسم، وأكد أن هذه الحرب تختلف عن غيرها من الحروب حتى في الأمراض التي تفرزها، كما أن الإصابات المرضية التي تحدثها هي إصابات خطيرة وخبيثة حيث تهاجم الأنا هجوما قويا شرسا وتترك فيه شرخا (صدعا) كبيرا يهيئه للإصابة بالمرض بسرعة (ص279).
وعلى عكس أطباء الأعصاب الفرنسيين الآخرين الذين وصفوا «السكان الأصليين» بالبربرية والوحشية والعنف المتجذر في نفوسهم بيولوجيا ووراثيا، فقد أوضح فانون أن منشأ المواقف الدفاعية (ردود الفعل) للشعوب المستعمرة والتي تتسم بالعنف هو الإرادة في التحرر، والدفاع عن الذات وعن الأرض بكل الوسائل ومن بينها استعمال العنف؛ وذلك لمحو الاستعمار وتشكيل إرادة التحرر والتطور التي قد تتطلب استعمال جميع الوسائل ومنها وسيلة العنف طبعا (ص27).
وفي الواقع، فإن هذه المزاعم «الاستعمارية» حول الشعوب المقهورة لم تكن خاصة بالجزائر فقط بل شملت كل «الأجناس السفلى» حسب هذه المزاعم التي احتلت بقوة الحديد والنار جراء تخلفهم العسكري (عشوي وآخرون، 2018)[8].
وقد بين بوسنة (2015) مراحل الحرب النفسية في الجزائر من بداية الغزو حتى ثورة التحرير، وأكد بأن ثورة التحرير قد تفوقت على الاستعمار الفرنسي في الحرب النفسية الاستراتيجية والتعزيزية، وبالتالي نجحت في فرض مسار الحرية والاستقلال.

8 -انظر كتاب: الشخصية الجزائرية: دراسة ميدانية. مصطفى عشوي وآخرون، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، 2018، ص 7-8.

استغلال التدين المزيف

ومن الأساليب التي اعتمدتها الحرب النفسية الفرنسية في الجزائر لشل أذهان الجزائريين، وتكبيل سلوكهم لكي لا يقاوموا الاحتلال ولكي لا يثوروا ضد الاستغلال البشع لهم ولثرواتهم، قيام السلطات الفرنسية باستخدام «التدين المزيف» لتحقيق مآربها؛ وذلك إدراكا منها لأهمية الدين في تشكيل ذهنية الشعب الجزائري، وعواطفه وانفعالاته وأفعاله.

ومن بين الأساليب التي اعتمدها المحتل الفرنسي لاستغلال الدين لمآربه العدوانية، العمل على استمالة وإغراء بعض الطرق الصوفية بهدف تجنيدها لخدمة المصالح الفرنسية. وقد تجلت هذه الخدمة في قيام شيوخ بعض هذه الطرق بتبرير «الاستعمار» الفرنسي بأنه قضاء وقدر لا يمكن الفرار منه، وأنه ينبغي طاعة السلطة الفرنسية لأنها تمثل أولي الأمر، وأن الله تعالى قد أمر بطاعة أولي الأمر، وغير ذلك من عبارات للتبرير، وقصص للتثبيط، وأمثلة للتخويف والترهيب؛ وكل ذلك بالاعتماد على تفسير محرف لبعض آيات القرآن الكريم أو لبعض الأحاديث الشريفة، أو على نزع معاني الآيات والأحاديث عن سياقها القرآني والزماني والمكاني أو على توظيف مغشوش لبعض قصص الأنبياء والصالحين، أو على استشهاد خاطئ بأحداث تاريخية، أو على ادعاء التقوى والزهد، وامتلاك الكرامات، والقدرة على إتيان الخوارق، وعلى تشجيع التفكير الخرافي واستعمال الشعوذة. ولا يخفى أن توظيف هذا «الدين الزائف» هدفه اغتيال العقل، وشل الوجدان، وكبح أي فعل ضد الحاكم المستبد والمحتل. وقد فطن قادة الاحتلال إلى أهمية استمالة بعض رجال الدين وخاصة «شيوخ الطرق الصوفية» نظرا لما يتمتعون به من نفوذ بين عامة الناس، وقدرة على تخدير عقولهم، وتكبيل سلوكهم، ونظرا لقيمة الخدمات التي يقدمونها للمحتل. ولذا فقد مدح أحد هؤلاء القادة هذه «الطرق» قائلا: «إن الحكومة الفرنسية تعظم زاوية من زوايا الطرق، أكثر من تعظيمها لثكنة جنودها وقوادها، وأن الذي يحارب الطرق إنما يحارب فرنسا» (الجندي، 1965).

لقد ظهر هذا «التعظيم» لبعض الطرق الصوفية بعد أن أدرك المحتل أن لبعض هذه الطرق مثل القادرية والرحمانية والشيخية دورا كبيرا في مقاومته مقاومة شديدة في كثير من المناطق بقيادة مجاهدين ومجاهدات كبار مثل الأمير عبد القادر والشيخ الحداد ولا لا فاطمة نسومر والشيخ بوعمامة (سعد الله، 1988). وعليه، فقد «توجهت أنظار خبراء

الاستعمار إلى تحييد الطرق الصوفية بوسائل عديدة منها الوعد والوعيد، كشراء الذمم وتولية الوظائف والمناصب. ولم تأت الحرب العالمية الأولى حتى تدجنت الطرق الصوفية، وأصبحت ضالعة إراديا أحيانا وغير إرادي أحيانا أخرى في ركاب الاستعمار. ولعل أبرز ظاهرة شهدتها هذه الفترة هي اختفاء روح الجهاد عند هذه الطرق التي أصبحت في الواقع أدوات لتنفيذ أوامر ورغبات الاستعمار مثل تخدير الشعب وتأييد السياسة الاستعمارية» (سعد الله، 1988).

لقد اندرج هدف الاستعمار من توظيف هذا النوع من «التدين» في إطار الحرب النفسية الشاملة التي استعملت «التدين المزيف» لتعميق عقدة «القابلية للاستعمار» بمفهوم ابن نبي في نفوس الجزائريين، ولتحقيق «الاستحمار» لدى الشعوب المحتلة بتعبير شريعتي والذي يعني به تسخير الإنسان مثل الحمار لخدمة «الاستعمار» و «الاستبداد» وكل أشكال الاستعباد. وقد اعتبر شريعتي «الدين الاستحماري» في كتابه «النباهة والاستحمار» بأنه دين ضد الدين. والاستحمار حسب شريعتي نوعان: استحمار قديم واستحمار حديث. والدين كان دافعا قويا للاستحمار القديم، بينما الدافع للاستحمار الحديث يقوم على ثقافة الاستيهام (التخيلات) والوسائل والأدوات الإعلامية والإعلانية. وقد عمل الاستعمار القديم حسب شريعتي على إشغال الشعوب وإلهائها عن الوعي الإنساني والاجتماعي لإنشاء جيل جديد مطابق لمقاييسه ومعاييره، جيل فارغ، مضطرب، لا يتحمل أي مسؤولية! لا فكر ولا تعب، لا هم ولا نصب[9]. وللتغلب على هذه النزعة «الاستحمارية» ينبغي أن يتصف الفرد والمجتمع بالنباهة أي بالفطنة والذكاء الفردي والجماعي لمواجهة كل أشكال الاستبداد والاستعباد والاستعمار وحربه النفسية.

ونظرا لتواطؤ بعض الطرق الصوفية مع الاستعمار الفرنسي، فقد قام الشيخ عبد الحميد ابن باديس حتى قبل إنشاء «جمعية العلماء المسلمين» سنة 1931 بمحاربتها، وفضح أساليبها؛ فأصدر عدة جرائد لهذا الغرض مثل جريدة «المنتقد» سنة 1925 وجريدة «الشهاب» سنة 1926 وقد انتقد فيهما انحراف «الطرق الصوفية» كما انتقد مبدأ هذه الطرق القائم على شعار: «اعتقد ولا تنتقد» وأبدله بشعار آخر يدل على ضرورة تحكيم العقل والمنطق والتفكير النقدي، وعلى عدم الانصياع لاعتقادات زائفة وهو شعار: «انتقد قبل أن تعتقد»[10].

9- لمزيد من التفاصيل، انظر: جميل قاسم https://www.daralameer.com/newsdetails.php?id=404&cid=27

10 -انظر جريدة النصر بتاريخ 17 ابريل 2017: النصر تنقل الجانب الآخر من حياة العلامة عبد الحميد بن باديس (لقاء مع أخ العلامة).

وبالإضافة إلى تجنيد بعض رجال الدين وخاصة من أتباع بعض "الطرق الصوفية" وبعض "الزوايا" مثل الطريقة التيجانية والطريقة العليوية (الجندي، 1965) فإن الاحتلال الاستيطاني قد جند أيضا رجال دين مسيحيين (رهبانا وراهبات) للقيام بعمليات ما يسمى بالتبشير في بعض المناطق من البلاد وخاصة المنظمة المسماة "الآباء والأخوات البيض" (سعد الله،1988) . ولكن تأثير عمليات "التبشير" أو التنصير قد باءت بالفشل، ولم تحقق إلا نتائج محدودة جدا. ولا يخفى بالطبع الأساليب المباشرة وغير المباشرة التي كانت تستعمل من طرف الرهبان والراهبات الكاثوليك وغيرهم لاستمالة بعض المواطنين وخاصة اليتامى منهم، والمحرومين من الحنان والدفء العائلي سواء بتوفير الايواء أو المساعدات أو الرعاية الطبية أو التعليم أو بغير ذلك من الطرق والأساليب التي لم يكن هدفها إنسانيا بقدر ما كان "تنصيريا" في الظاهر، وخدمة للا"حتلال في الباطن. وقد شرح كل من وايت ودوغتون (2012) (White & Daughton, 2012) في كتابهما المعنون "في امبراطورية الإله « (In God's Empire) بالتفصيل استخدام فرنسا للحملات «التبشيرية» في أنحاء مختلفة من العالم كوسيلة للحصول على النفوذ السياسي، ولتبرير توسعها الاستيطاني في القارات الخمس. والغريب أن فرنسا التي ادعت ولا تزال تتدعى بأنها دولة علمانية (لائكية)، لا تتورع في استغلال الدين لخدمة مصالحها المادية بمكيافيلية مفضوحة. وكما استعمل الدين المزيف، والحرب النفسية لتخدير العقول وشل السلوك الإيجابي لكي لا يواجه القوة التدميرية للتقتيل والترويع والترهيب، فقد استخدمت السلطات الفرنسية كما سنرى أدناه سياسة التجهيل، وسياسة «التعليم المبتور» والمشوه والموجه للسيطرة على أذهان الجزائريين ووجدانهم وسلوكهم.

التعليم المبتور

أكد هيغوي (1973) (Heggoy) وهو كاتب أمريكي أن السلطات الفرنسية التي احتلت الجزائر وباقي شمالي افريقيا لم تكن تهتم خلال القرن التاسع عشر بتعليم المواطنين الجزائريين والتونسيين والمغاربة بل كان المستوطنون الفرنسيون يرفضون التحاق أبناء الجزائريين بالمدارس التي فتحت بسخاء لجميع أبنائهم الذين هم في سن «التمدرس». وأورد أيضا أن السلطات الفرنسية قد أغلقت المدارس العربية الابتدائية والثانوية التي كانت منتشرة في الجزائر قبل الاحتلال. وخلص إلى القول بأن «ادعاءات فرنسا العديدة حول «رسالتها الحضارية»، وحول رغبتها في دمج سكان شمال افريقيا في جسد السياسة

الفرنسية، أو على الأقل اتباع سياسات تشاركية تجعل المسلمين مثل الفرنسيين، كانت كلها ادعاءات جوفاء...». ومقابل السماح بنشر اللغة الفرنسية في بعض المناطق، فقد ضيقت على تعليم اللغة العربية، وعلى فتح مدارس حرة حيث أصدرت السلطات الفرنسية قانون 24 ديسمبر 1904 الذي يمنع كل جزائري من فتح مدرسة إلا برخصة من السلطات الفرنسية وبالذات من عامل العمالة (الوالي الفرنسي)، وأية مخالفة لذلك القانون تعرض صاحبها لعقوبة السجن والتغريم، ثم إن هذه الرخصة لا تعطى إلا للمحظوظين الذين رضيت عنهم الإدارة الاستعمارية ووثقت بهم. وقد صرح أحد مديري مكتب الشؤون الأهلية بالجزائر، قائلا: «لقد أذللنا الدين الإسلامي وبلغ به الأمر أن لا يعين إمام أو فقيه أو طالب، إلا إذا شارك في أعمال الجوسسة الفرنسية ثم عليه كي يرتقي في الدرجة أن يثبت قدرا كبيرا من الحماسة والإخلاص للإدارة الفرنسية[11]».

ويبدو واضحا أن فرنسا قد دمرت معظم المساجد أو حولتها إلى كنائس، وأغلقت المدارس العربية في معظم ربوع البلاد؛ وذلك لفرض سياسة التجهيل على الجزائريين لكي لا يفكروا في المقاومة والحرية والقيم السامية، ولكي يصبحوا يدا عاملة رخيصة مستسلمة لأميتها وجهلها لدى المستوطنين الفرنسيين وغيرهم. وقد تحقق ذلك بالفعل سواء في المزارع التي اغتصبها «المستوطنون» الفرنسيون في الجزائر أم في المصانع وورشات البناء في فرنسا نفسها، كما تحقق بفرض التجنيد على كثير من الجزائريين، وإجبارهم على القتال تحت علم فرنسا خلال الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية.

وقد أدت سياسة التجهيل المفروضة على معظم الجزائريين إلى انتشار الأمية والفكر الخرافي والشعوذة لديهم، و سيطرة روح التواكل على سلوكهم، و الابتعاد عن فهم تاريخهم وثقافتهم ودينهم.

وقد احتفلت فرنسا في سنة 1930 بمناسبة مرور مائة سنة على احتلالها للجزائر. وكان رد بعض علماء الجزائر على ذلك هو إنشاء «جمعية العلماء المسلمين» سنة 1931 برئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس لنشر التربية والتعليم باللغة العربية في ربوع الوطن، ونشر الدين الصحيح، ومحاربة الخرافات وكل أساليب الشعوذة التي كانت تمارس من

11 -انظر: الأستاذ فضلاء: المدارس الحرّة لجمعية العلماء حلقة من كفاحنا الطويل. جريدة الشعب بتاريخ 9 مارس 2019، إعداد: سهام بوعموشة.

طرف بعض الطرق الصوفية والزوايا باسم الدين. وبالإضافة إلى جهود الجمعية في التربية و التعليم والتي أوردها فضلاء (1999) بالتفصيل، فإن لبعض «الزوايا» في مناطق متعددة من البلاد الفضل في تحفيظ القرآن الكريم والتدريس باللغة العربية كما أن حزب الشعب قد أسس بعض المدارس العربية وخاصة في العاصمة كما أن سكان وادي ميزاب (الإباضيين) قد حافظوا على اللغة العربية من خلال إنشاء مدارس خاصة بهم (عزة، 2013).

ويتضح من هذه القراءة النفسية المختصرة للسجل الفرنسي الاستعماري في الجزائر سواء استعمل هذ الاستعمار التكنولوجيا والقوة التدميرية والتقتيل الفردي والجماعي، والحرق والذبح والاغتصاب والتعذيب أم استعمل الحرب النفسية البشعة أو الدين المزيف، أو سياسة التجهيل والتضليل، أن الهدف من كل ذلك هو اغتصاب الأرض من أصحابها، واغتيال عقولهم، وتحطيم معنوياتهم، وتخريب وجدانهم، وتشويه شخصيتهم التاريخية والثقافية والإنسانية، وتكبيل أفعالهم الخيرة، وشل سلوكهم الإيجابي ليخلو له الجو لاستيطان الأرض، وبسط نفوذه السياسي والاقتصادي ولفرض هيمنته اللغوية والثقافية على الشعب الجزائري.

ولكن ورغم كل هذه الأدوات والأساليب التي استعملها الاحتلال الفرنسي في الجزائر، فإن الشعب الجزائري لم يستسلم أبدا بل استمرت المقاومة «الجهادية» في معظم أرجاء البلاد من طرف رجال ونساء أبطال مثل الأمير عبد القادر، وأحمد باي، والمقراني، وبوعمامة، ولالا فاطمة نسومر. وبرزت أصوات بعض النخب السياسية منذ إنشاء حزب «نجم شمال افريقيا» و«حزب الشعب» وغيرهما من الأحزاب والجمعيات تدافع عن حقوق الجزائريين وعن كرامتهم حتى توحدت الإرادات وقامت ثورة التحرير بقيادة «جبهة التحرير الوطني»، ودامت الثورة سبع سنين حتى بزغ فجر الاستقلال بعد تضحيات جسام... وقد مارس الاحتلال خلال هذه الثورة كل أساليب الحرب النفسية، والحرب التدميرية، والترويع والترهيب، وأسفر عن وجهه القبيح بعقده العميقة والشديدة بغرض إبقاء الهيمنة الاستعمارية على الجزائر إلى الأبد. ورغم كل ما اقترفه الاحتلال الفرنسي من جرائم حرب ضد الإنسانية، فقد استطاعت ثورة التحرير كتابة تاريخ عظيم... تاريخ ثورة يقرأ بكل اللغات، تاريخ يقرأ سياسيا وعسكريا واقتصاديا واجتماعيا كما ينبغي أن يقرأ قراءة نفسية موضوعية.

خلاصة

هذه قراءة نفسية أولية لبعض الأسس التي اعتمدها الاستعمار الفرنسي لفرض سيطرته، وبسط هيمنته على ربوع الجزائر، وهي نفس الأسس التي اعتمدها في معظم البلدان التي غزاها واحتلها. ولا شك أن هذه القراءة قراءة مبتسرة تحتاج لمزيد من الاطلاع على المراجع المختلفة، وعلى التعمق في التحليل واستخلاص النتائج. وقد تفادينا في هذه القراءة الاعتماد على أية نظرية نفسية محددة؛ ذلك لأن معظم هذه النظريات نفسها قد انطلقت من تصورات «غربية» أساسها مبادئ الرأسمالية والأخلاقيات البروتستانتية والكاثوليكية التي اعتمدت صدقا أو نفاقا منطلقا لاحتلال البلدان الأخرى، ومحاولة استعباد أهلها باستعمال كل الوسائل اللاإنسانية واللاأخلاقية...

ورغم أن سلطات الاحتلال في الجزائر قد اتبعت أسلوب الأرض المحروقة، ومبدأ إبادة أكبر قدر ممكن من الجزائريين بالحرق والقتل والتدمير، ورغم ممارستها لكل أشكال وأساليب الحرب النفسية، وتطبيق آليات التبرير والإنكار والهروب من الواقع، وممارسة العدوان بصورة سادية، فإن الشعب الجزائري قد واجه كل ذلك بقيم راقية تمثلت في الشجاعة والتعاون والوطنية والكرم، وبتضحية بالنفس والنفيس بشكل منقطع النظير حتى نال الاستقلال وإن أصاب الضعف والوهن بعض شرائح وفئات هذا الشعب.

إن هذه القراءة النفسية المبتسرة لسجل الاحتلال الفرنسي للجزائر التي قامت على عرض بعض المواضيع المتمثلة في «تقابل القوة والضعف» و«الحرب النفسية» و«التدين الزائف» و«التجهيل»، لتشهد على «السجل الأسود» للاحتلال الفرنسي للجزائر بشهادة بعض كتابها ومؤرخيها. ويمكننا أن نستنتج من هذه القراءة وفق المنهج المتبع ما يأتي:

1- إن للاستعمار وللقوة الدافعة له بنية ذهنية تتسم بالعدوانية والتعالي والشعور بالتفوق، واستعمال آليات نفسية لتبرير هذه العدوانية كما تبرر الاعتداء على حقوق الآخرين.

2- قام الاستعمار الفرنسي بإثارة انفعالات شديدة مثل الكراهية والحقد التاريخي لتحطيم الآخر، وتشويهه بل واستعباده وسلب خيراته وحرياته مثل الكراهية والغضب والحقد.

3- أظهرت الأفعال التي قامت بها القوات الفرنسية في الجزائر مدى وحشية هذه القوات مما يعبر عن الذهنية والانفعالات المشار إليها أعلاه.

وتحتاج هذه القراءة النفسية الأولية إلى دراسات أخرى تتعمق في الجوانب النفسية لتاريخ الاحتلال الفرنسي للجزائر برمته بهدف فهم هذه الجوانب والدوافع المصاحبة لها، كما تتعمق في الجوانب النفسية ودوافعها التي أسهمت في مقاومة الاحتلال من طرف الشعب الجزائري.

ولاشك، أن مثل هذا التعمق سيمكننا من استخلاص دروس وعبر تفيدنا في الحاضر والمستقبل كما يفيدنا هذا التعمق في فهم جانب مهم من جوانب الشخصية الجزائرية في بعدها التاريخي؛ وذلك كله باتباع منهجية قائمة على تحليل محتوى الوثائق والمراجع والمصادر التاريخية المختلفة، وعلى شهادات بشرية «مذكرات مجاهدين وضباط فرنسيين مثلا» وشواهد مادية مثل تلك الموجودة في المتاحف الجزائرية والفرنسية وغيرها.

المراجع

- ابن نبي، مالك (1948). شروط النهضة. ترجمة عبد الصبور شاهين. دار الفكر، دمشق، 1986.
- بوسنة، محمود (2015). دور الحرب النفسية في إنجاح ثورة التحرير الجزائرية وإفشال سياسة الاستعمار الفرنسي الاستيطانية. مجلة أفكار وآفاق، المجلد 04، العدد 06، منشورات جامعة الجزائر 2.
- الجندي، أنور (1965). الفكر والثقافة في شمال افريقيا. الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.
- جميل، قاسم (2010). علي شريعتي: الاستعمار والاستحمار. فصل من كتاب علي شريعتي: الهجرة إلى الذات. مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، ط 1. مقتبس بتاريخ 2 يوليو، 2019 من موقع :https:// www.daralameer.com/newsdetails.php?id=404&cid=27
- سعد الله، أبو القاسم (1988). العامل الديني في الحركة الوطنية الجزائرية. مجلة الفيصل، عدد 138، يوليو-أغسطس 1988، 34-32.
-شريعتي، علي (2007). النباهة والاستحمار. دار الأمير. ترجمة هادي السيد ياسين. الطبعة الثانية 1428 هـ
- عزة، حسين (2013). التعليم العربي في الجزائر إبان ثورة التحرير. رسالة ماجستير غير منشورة. جامعة أدرار، قسم العلوم الإنسانية.

- العساف، صالح بن حمد (1989). المدخل إلى البحث في العلوم السلوكية. مكتبة العبيكان، الرياض.
- غي، دو موباسان (1881). رحلة الجزائر «إلى بلاد الشمس»، ترجمة نادية عمر صبري. ط1، ورد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2007.
- فضلاء، محمد الحسن (1999). المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر (1-3)، ط1، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر.
- فضلاء: المدارس الحرّة لجمعية العلماء حلقة من كفاحنا الطويل. جريدة الشعب بتاريخ 9 مارس 2019، إعداد: سهام بوعموشة.
- لوغرانميزون، أوليفي لوكور (2007). الاستعمار الإبادة. ترجمة نورة بوزيدة، دار الرائد للكتاب، الجزائر.
- ليوزو، كلود؛ منصرون، جيل (2007). الاستعمار والقانون والتاريخ، ترجمة بشير بولفراق، دار القصبة للنشر، الجزائر.
- مسبيرو، فرانسوا (2005). سانت آرنو أو الشرف الضائع، ترجمة أحمد بكلي، دار القصبة للنشر، الجزائر.
-موسى، عايدة العزب (2007). تجارة العبيد في إفريقيا، ط1. مكتبة الشروق الدولية، القاهرة.
- ميليرون، كريستين (2007). العمل البسيكولوجي ومسخ إنسانية الخصم في «العنف، التعذيب والاستعمار: من أجل الذاكرة الجماعية». إشراف كلود ليوزو، ترجمة: إبراهيم سعدي، دار القصبة للنشر، الجزائر.

-Ageron, Charles-Robert (1974). Histoire de l'Algérie Contemporaine (1830- 1973), que sais-je? Presse universitaires de France, Paris.
- Doray, B. (2006). La Dignité: Les debouts de l'utopie. LA DISPUTE.
- Gallois, W. (2008). The Administration of sickness- Medicine and Ethics in Nineteenth-Century Algeria. Palgrave-Macmillan, UK.
- Heggoy, A. A. (1973). Education in French Algeria: An Essay on Cultural Conflict. Comparative Education Review, 17:180-197.
- Youcef, O. L. (2018). On Colonial Nostalgia Case Study: Algeria. International Journal of History and Philosophical Research. 6, 01, 13-20.
- White, O. & Daughton, J. P. (2012). In God's Empire: French Missionaries and the Modern World. 1st Edition. Oxford University Press, New York.